

**أضواء
على أحاديث
أسوء فهمها**

بقلم
الأستاذ الدكتور / يوسف القرضاوي
مدير مركز بحوث السنة والسيرة

١ - حديث (بدأ الإسلام غريباً) :

□ س : من الأحاديث المشتهرة على الألسنة والاقلام : حديث (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ، فطوبى للغرباء).

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية؟ وما المراد به؟ وهل كلمة (غريباً) من الغربة أو من الغرابة؟ فقد سمعت بعض المتحدثين في (الاذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفى أن يكون من (الغربة).

وإذا كان من الغربة كما هو الشائع والمتبادر ، فهل يعنى هذا ضعف الاسلام وأقول نجمه؟

وهل هناك دلائل على انتصار الاسلام مرة أخرى كما انتصر في القرون الأولى للهجرة؟

■ ج : الحديث صحيح الاسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن، وهو مروي عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد ، وابن عباس ، رضى الله عنهم جميعاً، كما في الجامع الصغير .

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء).

وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها ، وبقي الكلام في معناه .

ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان) أو ما يسمى (أحاديث الفتن) و(اشراط الساعة) يفهمها بعض الناس فهماً يوحى باليأس من كل عمل للاصلاح والتفسير .

ولا يتصور أن يدعو الرسول الكريم (ﷺ) الأمة إلى اليأس والقنوط ، وترك الفساد يستشري في الناس والمنكرات تنخر في عظام المجتمع ، دون أن يصنع الناس شيئاً ، يقوم ما أعوج ، أو يصلح ما فسد .

وكيف يتصور ذلك ، وهو (ﷺ) يأمر بالعمل لعبارة الأرض ، الى أن تلفظ الحياة آخر انفاسها ، كما يتضح ذلك من الحديث الشريف : «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ،

فإن استطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يغرسها، فليغرسها»^(١).

ومعنى هذا إنه لن يأكل من ثمر هذا الغرس ولا أحد من بعده، مادامت الساعة قد قامت، أو توشك أن تقوم.

فاذا كان هذا مطلوباً في أمر الدنيا، فأمر الدين أعظم وأجل، ولا بد من العمل من أجله إلى آخر رمق في هذه الحياة.

أما معنى كلمة (غريباً) فالتبادر أنها من (الغربة) لا من (الغربة) (بديل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصف بالغربة لا الغربة.

وانما كانت غربتهم من غربة الاسلام الذي يؤمنون به ويدعوه اليه. وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة (غريب) من أكثر من حديث مثل (كن في الدنيا كأنك غريب) رواه البخاري.

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات في هذا الحديث، في وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغربة.

هذا الى أن الواقع اليوم وفي عصور خلت، يدل على غربة الاسلام في دياره ذاتها، وبين أهله أنفسهم. حتى أن من يدعو إلى الإسلام الحق يعاني الاضطهاد والتنكيل، أو الشنق أو الاغتيال.

ولكن هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة أو هي غربة جزئية ومؤقتة؟ فقد تكون في بلد دون آخر، وفي زمن دون آخر. وبين قوم دون غيرهم. كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضى الله عنه.

والذي أراه أن الحديث يتحدث عن دورات أو (موجات) تأتي وتذهب، وان الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف، والامتداد والانكماش، والازدهار والذبول، وفق سنن الله التي لا تتبدل. فهو كغيره خاضع لهذه السنن الالهية، التي لا تعامل الناس بوجهين، ولا تكيل لهم بكيلين، فما يجرى على الأديان والمذاهب يجرى على الإسلام، وما يجرى على سائر الأمم يجرى على أمة الإسلام.

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد عن أنس، وكذا الطيالسي والبخاري، وقال الهيثمي: رواه ثقات اثبات.

فالحديث ينبىء عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات، ودورة من الدورات، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته، ويقوم من كبوته، ويخرج عن غربته، كما فعل حين بدأ. فقد بدأ غريباً، ولكنه لم يستمر غريباً، لقد كان ضعيفاً ثم قوى مستخفياً ثم ظهر، محدوداً ثم انتشر، مضطهداً ثم انتصر.

وسيعود غريباً كما بدأ، ضعيفاً ليقوى، ثم يقوى، مطارداً ليظهر ثم يظهر على الدين كله، ملاحقاً مضطهداً لينتشر وينتشر ثم ينتصر وينتصر.

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه.

ومما يدل على أن الحديث لا يعنى الاستسلام أو اليأس، ولا يدعو إليه بحال، ما جاء في بعض الروايات من وصف لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة، ويحيون ما أماته الناس منها.

فهو قوم إيجابيون بناؤون مصلحون، وليسوا من السليبين أو الانعزالين أو الاتكاليين، الذين يدعون الأقدار تجرى في أعنتها ولا يحركون ساكناً، أو ينهبون غافلاً.

ومن المفيد أن نقل هنا ما كتبه الامام ابن القيم حول هذا الحديث، عند شرح كلام شيخه الهروي في باب (الغربة) من (منازل السائرین) الى مقامات ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ فقال رحمه اه في (مدارج السالكين):

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض؟ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ (سورة هود: ١١٦) قال ابن القيم معلقاً وشارحاً:-

(استشهاد بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن، فان الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ) في قوله (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس)^(١) وقال الإمام أحمد:

(١) أورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدي، بنحوه وقال: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح، غير بكر بن سليم وهو ثقة (٧/ ٢٧٨)، ومن حديث جابر وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف وقد وثق (٧/ ٢٧٨).

حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو - مولى المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبي (ﷺ) قال: (طوبى للغرباء). قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: (الذين يزيدون إذا نقص الناس).^(١)

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً - لم يتقلب على الرواي لفظه وهو: (الذين ينقصون إذا زاد الناس) - فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقياً إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): (إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: التزاع من القبائل).^(٢)

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال النبي (ﷺ) ذات يوم. ونحن عنده - (طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم).^(٣)

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جبل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبدالله عن سليمان بن هرم عن عبدالله بن عمرو عن النبي (ﷺ) قال: (أن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة).^(٤)

وفي حديث آخر (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون ستنى، ويعلمونها الناس).^(٥)

(١) بحث عن الحديث في مظانه في المسند فلم أجده، وكذلك لم أجده في (جمع الزوائد) للهيتمي، ولا أشار إليه في المعجم المفهرس للكتب التسعة. بل لم أجده المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة في المسند، وفقاً لفهرس الشيخ الألباني. فأما أن يكون ساقطاً من المطبوع كما تبين ذلك مع عقبه بن مرة الجهني، فإن له ثلاثة أحاديث في المسند، ليس في المطبوع إلا واحد منها، أو يكون أحد رواه خارج المسند. والله أعلم.

(٢) الحديث في الدارمي برقم (٢٧٥٧) وابن ماجه برقم (٣٩٨٨) والترمذي برقم (٢٦٣١) بدونه السؤال وقال: حسن غريب صحيح، والبيهقي في الزهد برقم (٢٠٨) والبعث في شرح السنة، وصححه (١١٨/١) حديث (٦٤) نشر المكتب الاسلامي.

(٣) الحديث في المسند وصححه الشيخ شاكر، كذا أورده الهيتمي (٧/٢٧٨) وقال: رواه احمد والطبراني الأوسط، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف. وذكره في موضع آخر جزءاً من حديث وعزاه إلى الطبراني في الكبير، وقال: له فيه أسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح (١٠/٢٥٦).

(٤) رواه أحمد في (الزهد) ص ٧٧ وليس في (المسند) كما رواه البيهقي في الزهد برقم (٢٠٦).

(٥) رواه البيهقي في الزهد من حديث كثير بن عبدالله بن عوف عن أبيه عن جده وهو ضعيف جداً برقم (٢٠٧) كما رواه الترمذي بهذا السند برقم (٢٦٣٢) وقال: حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح!! ولفظه: (طوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من ستنى). وهذا مما أخذه عليه النقاد ولعله حسنه أو صححه لكثرة شواهد.

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد . فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ) ، وهو يبكي ، فقال له عمر : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال : لا ، ولكن حديثاً حدثني حبيبي ﷺ) ، وأنا في المسجد ، فقال : ما هو؟ قال : ان الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء . الذين إذا غابوا لم يفتقدوا . وإذا حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الهدى . يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة). (١)

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون . ولقلتهم في الناس جداً : سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات . فأهل الإسلام في الناس غرباء . والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء . وأهل العلم في المؤمنون غرباء وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فيهم غرباء . والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين : هم أشد هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً ، فلا غربة عليهم . وانما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ (الأنعام : ١١٦) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه . وغربتهم هي الغربة المحزنة . وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم . كما قيل :

فليس غريباً من تناءت دياره . : ولكن من تنأين عنه غريب !

ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التي ذكر الله . وهو وحيد غريب خائف جائع . فقال : (يارب وحيد مريض غريب . فقيل له : ياموسى ، الوحيد : من ليس له مثلي أنيس . والمريض : من ليس له مثلي طيب . والغريب : من ليس بيني وبينه معاملة) .

فالعربة ثلاثة أنواع : غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق . وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها . وأخبر عن الدين الذي جاء به : أنه (بدأ غريباً) وأنه (سيعود غريباً كما بدأ) وان (أهله يصيرون غرباء) .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم ، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقاً . فإنهم لم يأووا إلى غير الله . ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ) . ولم يدعوا إلى غير ما جاء به . وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) وضعفه في الزوائد بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر وقال : صحيح ولا علة له عن زيد بن أسلم (٤/١) ووافقه الذهبي وانظر : كتابنا : المنتقى من الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقي في الزهد بسند آخر ، برقم (١٩٧) عن ابن عمر .

إليهم . فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آليتهم بقوا في مكانهم . فيقال لهم : (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون : فارقنا الناس . ونحن أحوج إليهم منا اليوم . وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده) .

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها . بل هو أنس ما يكون إذا استوحش الناس . وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا . فولية الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن ما داه أكثر الناس وجفوه .

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي (ﷺ) قال - عن الله تعالى - (أن أغبط أوليائي عندي : لمؤمن ، خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاته . أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافاً ، وكان مع ذلك غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر على ذلك حتى لقي الله . ثم حلت منيته ،^(١) ، وقل ترائته ، وقلت بواكيه .^(٢))

ومن هؤلاء الغرباء : من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي (ﷺ) (رب أشعث أغبر . ذى طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره) .^(٣)

وفي حديث أبي ادريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي (ﷺ) قال : (ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : كل ضعيف أغبر ، ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره) .^(٤)

وقال الحسن : المؤمن في الدنيا كالغريب . لا يجزع من ذلها ، ولا ينافس في عزها . للناس حال وله حال . الناس منه في راحة ، وهو من نفسه في تعب .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي (ﷺ) : التمسك بالسنة ، إذا رغب عنها الناس . وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو المعروف عندهم . وتجريد التوحيد ، وأن

(١) نص الترمذي : ثم نفص بيده فقال : عجلت منيته ... الخ ... والمراد بقوله : اغبط الناس : احق من يتمنى الناس مثل حاله . وخفيف الحاذ : أى ضعيف الظهر من العيال . كفافاً : أى بقدر الحاجة . لا يشار إليه بالأصابع : أى أنه مغموغ غير مشهور . ومعنى (عجلت منيته) : أنه لم يعمر طويلاً ، فقد بصاب أو يستشهد في سبيل الله . قل ترائته : لم يترك ما لا كثير . قلت بواكيه : ربما لموته في الغربة .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم ، وهو اسناد ضعيف ، وإن حسنة الترمذي ، كما رواه ابن ماجه بنحوه باسناد آخر (٤١٢٧) وفيه راويان ضعيفان كما في الزوائد للبوصيري .

(٣) أورده الهيثمي بنحوه في المجمع (٢٦٤/١٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالله بن موسى التميمي وقد وثق ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح ، عن جابر بن هرم ، وقد وثق ابن حبان على ضعفه ، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود ، واسناده اجود . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) الحديث رقم (٢٦٢٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١١٥) وفيه سويد بن عبدالعزيز ، ضعفه وحسنه بعضهم لشواهد . انظر : فيض القدير : حديث (٢٨٥٢) .

أنكر ذلك أكثر الناس . وترك الانتساب الى أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ، ولا مذهب ، ولا طائفة . بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده . وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً . وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم . فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ، ومفارقة للسواد الأعظم .

ومعنى قول النبي (ﷺ) (هم النزاع من القبائل) أن الله سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديان مختلفة ، فهم بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهود وصابئة وفلاسفة . وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً . وكان من أسلم منهم ، واستجاب لله ولرسوله : غريباً في حيه وقبيلته . وأهله وعشيرته .

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل ، بل أحاداً منهم . تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا في الإسلام ، فكانوا هم الغرباء حقاً حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ، ودخل الناس فيه أفواجا . فزال تلك الغربة عنهم ، ثم أخذ في الاعتبار والترحل ، حتى عاد غريباً كما بدأ . بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره . وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة . فالإسلام الحقيقي غريب جداً . وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً ، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة . ذات اتباع وراثيات ، ومناصب وولايات . ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فان نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعلمهم . والشهوات التي هي غايات مقاصدهم واراتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شيخهم ، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي (ﷺ) : (مروا بالمعروف ، وانها عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأى برأيه ، ورأيت أمراً لا يد لك به ، فعليك بخاصة نفسك ، وإياك وعوامهم . فان وراءكم أياماً صبر الصابر فيهم كالقابض على الجمر) . (ولهذا جعل للمسلم

الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة. ^(١) ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا هَدَيْتُمْ﴾ (المائدة : ١٠٥) فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من وراءكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت : يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال : أجر خمسين منكم ^(٢) وهذا الأجر إنما هو لغريته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فاذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات، وتنبههم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وازرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه ^(٣). كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وأمامه (ﷺ)، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه، فهناك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويحلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبه، لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة : فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر في أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة، وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة، ويؤيده حديث الترمذي (مثل كمثل المطر، لا يدري أوله خير أم آخره).

(٢) رواه أبو داود في الملاحم برقم (٤٣٤١) والترمذي في التفسير برقم (٣٠٦٠) وقال حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤).

(٣) في عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيه، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم، ومطاردتها لهم، واستخدام كل ما تملك من قوة لإبذائهم والتضييق عليهم، ثم كيد القوى المعادية للإسلام وما أكثرها عدداً، وأقواها عدة.

والبدع. أمر بالمعروف، ناه عن المنكر، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف. (١) اهـ

* بشارات من القرآن بظهور الاسلام من جديد:

أما ما سأل عنه الاخ من وجود بشارات ودلائل على انتصار الاسلام في المستقبل، فهي كثيرة ومتوافرة، في كل من القرآن والسنة، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها، ولا يبرزون إلا ما يوحي ظاهره بالقنوط.

أما القرآن فحسبنا قول الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

وقد تكررت هذه الآية بهذه الصيغة مرتين، في التوبة (آية : ٣٣) وفي الصف (آية : ٩) وفي سورة الفتح ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ (آية : ٢٨).

فهذا وعد من الله تعالى بظهور دين الحق - الإسلام - على الدين كله، أي على الأديان كلها، وكان وعد الله حقاً، فلن يخلف الله وعده. ولا زلنا ننتظر تحقيق هذا الوعد: غلبة دين الإسلام وظهوره على جميع الأديان سماوية أو وضعية.

ونضيف الى ذلك قوله تعالى في محاولات أهل الكفر النيل من الإسلام، وعرقلة تقدمه وانتشاره: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ (الصف : ٨).

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (التوبة : ١٢).

والتعبير القرآني يسخر من هؤلاء حين يشبه محاولاتهم في إطفاء نور الإسلام، كالذي يحاول أن يطفىء الشمس بنفخة من فيه، كأنها يحسبها شمعة ضئيلة من شموع البشر.

وبشارة قرآنية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يغلبون﴾ (الأنفال : ٣٦).

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم (ج ١ / ١٩٤ - ٢٠٠) ط . السنة المحمدية.

* بشائر من الأحاديث النبوية :

وأما المبشرات من الحديث فحسبنا منها هذه الأربعة :-

١ - ما رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه واحمد عن ثوبان أن النبي (ﷺ) قال : (إن الله زوى لى الأرض «أى جمعها وضمها» فأريت مشارقتها ومغاربها ، وان امتى سيبلى ملكها ما زوى لى منها ...) الحديث ...^(١)

وهو يبشر باتساع دولة الإسلام ، بحيث تضم المشارق والمغارب ، وهذا لم يتحقق من قبل بهذه الصورة ، فنحن بانتظاره كما أخبر الصادق المصدوق .

٢ - ما رواه ابن حبان في صحيحه : (ليبلغن هذا الامر «يعني الإسلام» ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزأيعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر) .

فاذا كان الحديث السابق يبشر باتساع دولة الإسلام ، فهذا يبشر بانتشار دين الإسلام ، وبهذا تتكامل قوة الدولة وقوة الدعوة ، ويتحد القرآن والسلطان .

٣ - ما رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

عن أبى قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ، فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال : فأخرج منه كتاباً^(٢) ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله نكتب ، إذ سئل رسول الله (ﷺ) : أى المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني قسطنطينية^(٣) .

ورومية هي ما نطقها اليوم : (روما) عاصمة إيطاليا .

وقد فتحت مدينة هرقل ، على يد الشاب العثماني ابن الثالثة والعشرين والمعروف في التاريخ باسم (محمد الفاتح) فتحها في يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة

(١) ذكره الهيثمي في موارد الظمان الى زوائد ابن حبان (١٦٣١ ، ١٦٣٢) .

(٢) هذا يدل على مدى عنايته بما كتبه عن رسول (ﷺ) ، وانه لم يكن وحده يكتب ، لقوله : بينما نحن حول رسول الله نكتب . وهو يؤكد ما أصبح معلوماً لدى الدارسين اليوم ان كتابة الحديث وتدوينه بدأ في عهد النبي (ﷺ) .

(٣) رواه أحمد برقم (٦٦٤٥) واللفظ له ، وقال شاكر : اسناد صحيح ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٩/٦) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير أبي قبيل وهو ثقة ، والدارمي برقم (٤٩٣) وابن أبي شيبة والحاكم (٤٢٢/٣ ، ٥٠٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الالباني في الصحيحة برقم (٤) .

٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م.

وبقى فتح المدينة الأخرى : رومية ، وهو ما نرجوه ونؤمن به .

ومعنى هذا إن الإسلام سيعود إلى أوروبة مرة أخرى فاتحاً منتصراً ، بعد أن طرد منها مرتين : مرة من الجنوب ، من الأندلس ، ومرة من الشرق بعد أن طرق أبواب فيناً عدة مرات . وظني أن الفتح هذه المرة لن يكون بالسيف ، بل سيكون بالدعوة والفكر .

٤ - ما رواه أحمد وأحمد والبخاري والطبراني ببعضه - عن النعمان بن بشير عن حذيفة : أن النبي ﷺ قال :

(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون فتكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً^(١) ، فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون ملكاً جبرية^(٢) ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت^(٣) .)

ان فتح رومية وانتشار الإسلام حتى يبلغ ما بلغ الليل والنهار ، واتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشرق والمغرب ، إنما هو ثمرة لغرس ، ونتيجة لمقدمة ، هي عودة الخلافة الراشدة ، أو الخلافة المؤسسة على منهاج النبوة ، بعد بقاء الملك الجبري ، والملك العاص ، ما شاء الله أن يبقيا من القرون .

إن بعد الليل فجراً ، وإن مع العسر يسراً ، وأن المستقبل للإسلام ، وقد بدت بشائر الفجر والحمد لله .

(١) المال العاض أو العضوض : هو الذي يصيب الرعية فيه عسف وتجاوز ، كأنها له أسنان تعضهم عضاً .

(٢) ملك الجبرية : هو الذي يقوم على التجبر والطغيان .

(٣) أحمد في مسند النعمان بن بشير (٢٧٣/٤) من طريق الطيالسي ، وأورده الهيثمي في المجمع (١٨٩ ، ١٨٨/٥) وقال : رواه أحمد وأحمد والبخاري عنه ، والطبراني ببعضه في الأوسط ورجاله ثقات ، وهو في منحة المعبود برقم (٢٥٩٣) وفي كشف الاستار عن زوائد البخاري ، برقم (١٥٨٨) وصححه الحافظ العراقي في كتابه (معجزة القرب إلى محبة العرب) وذكره الألباني في (الصحيحة) برقم (٥) .

ومن هذه البشائر :-

١ - ظهور الصحوة الإسلامية، التي أعادت للأمة الثقة بالإسلام، والرجاء في غده، وقد أقلقت أعداء الإسلام في الداخل والخارج، وهي جديدة أن تقود الأمة إلى مواطن النصر، إذا قدر الله لها أن يتولى زمامها المرشدون الراشدون، من أولى الأيدي والأبصار، الذين آتاهم الله الفقه في سنن الله، والفقه في دين الله، والحكمة في النظر، والحكمة في العمل ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة : ٢٦٩).

٢ - انهيار الأنظمة الشمولية، وخصوصاً الشيوعية التي زعمت يوماً أنها ستغزو العالم، وترث الأديان، وتهزم الفلسفات، والتي لقيت أولى هزائمها على أيدي إخواننا المجاهدين في أفغانستان، والذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة في التاريخ.

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى، بدءاً بالإنحداد السوفيتي وأوروبا الشرقية، وإنهاءً بآلبانيا.

٢ - حديث «لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه»

□ س : كنت أقرأ في كتاب ديني ، فصادفني فيه حديث أقشعر له جلدي ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة . فالحديث يقول فيه النبي (ﷺ) : (لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه) .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرني بأن الحديث صحيح ، وإنه من رواية البخاري ، فأسقط في يدي ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث في صحيح البخاري ، أصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله تعالى ؟

فهل معنى هذا الحديث اننا في انحدار دائم ، وتدهور مطرد ، وأننا ننتقل من حسن الى سيئ ، ومن سيئ الى أسوأ ، ومن أسوأ الى ما هو أشد سوءاً ، حتى تقوم الساعة ؟

هذا مع أن هناك كثيراً من الناس يعتقدون عكس هذا تماماً : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علماً بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر في السماء !

ثم إن الحديث يلقي في نفوسنا ان لا أمل في شيء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، مادامنا ننحدر إلى الهاوية يوماً بعد يوم . فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لازمة دائمة لا بد ان نخضع لها . حتى تقوم الساعة على لكع بن لكع أى كافر بن كافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتتبعين لما تكتبون بأن لكم في هذا الحديث تأويلاً أودعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلني عليه ، عسى أن يزيع ما بنفسي من قلق وما بقلبي من حيرة وبلبلة .

جزاكم الله عن العلم والإسلام خير الجزاء .

م . ك . ع

الرباط - المغرب

■ ج : الحديث المذكور رواه الإمام البخاري في جامعه الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنده ، ولكن الآفة تأتي هنا من

فهمه فهماً يخالف سنن الله، أو حقائق العلم، أو ثوابت الواقع، ولا يمكن أن يأتي الدين بما يخالف ذلك، لأن الدين حق، وهذه الأشياء المذكورة حق، والحق لا يتناقض. فأما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا، أو يكون للنص الديني تأويل غير الظاهر المتبادر منه.

وأحاديث (الفتن) وما يتعلق بها يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغي التأمل الطويل في معانيها، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير.

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث. وقد تعرضت لبيان معناه، ورد الافهام الخاطئة التي أحاطت به، وذلك في كتابي (كيف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته في ذلك:

* هل كل زمن شر مما قبله؟

روى البخارى بسنده إلى الزبير بن عدى، قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: إصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم (ﷺ).

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للعود عن العمل، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ، مدعياً أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقوط مستمر وهوى متتابع، من درك إلى درك أسفل منه، فهي لا تنتقل من سىء إلا إلى أسوأ ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم.

وآخرون توقفوا في قبول الحديث، وربما تعجل بعضهم فردّه، لأنه في ظنه يدعو: أولاً: إلى اليأس والقنوط.

وثانياً: إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين.

وثالثاً: يعارض فكرة (التطور) التي قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعاً: ينافي الواقع التاريخي للمسلمين.

وخامساً : يعارض الأحاديث التي جاءت في ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذي عرف باسم المهدي) وفي نزول عيسى ابن مريم ، وإقامته لدولة الإسلام وإعلاء كلمته في الأرض كلها .

ومن الحق علينا أن نقول : إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه . يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث : أن كل زمن شر من الذي قبله ، مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها ، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبدالعزيز ، وهو بعد زمن الحجاج - الذي عمت الشكوى منه - بيسير . وقد اشتهر الخير الذي كان في زمن عمر بن عبدالعزيز ، بل لو قيل : إن الشر اضمحل في زمانه ، لما كان بعيداً ، فضلاً عن أن يكون شراً من الذي قبله .

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة :

أ - فالإمام الحسن البصري حمل الحديث على الأكثر الأغلب ، فقد سئل عن عمر ابن عبدالعزيز بعد الحجاج ، فقال : لا بد للناس من تنفيس !

ب - وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله : (لا يأتى عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله ، أما إننى لا أعنى أميراً خيراً من أمير ، ولا عاماً خيراً من عام ، ولكن علماءكم وفقهاؤكم يذهبون ، ثم لا تجدون منهم خلفاً ، ويحىء قوم يفتون برأيهم) وفي لفظ عنه : (فيثلمون الإسلام ويهدمونه) ورجح الحافظ في (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا ، قائلاً : وهو أولى بالاتباع .

ولكنه في الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه ، فالنصوص تدل على أن في الغيب أدواراً للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته ، ولو لم يكن إلا زمن المهدي والمسيح في آخر الزمان لكفى .

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد . ويكفى أن نذكر مثلاً من ظهر في القرن الثامن من العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد ، وتدهور الأوضاع في القرن السابع ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وسائر تلاميذه في الشام ، والشاطبي في الأندلس ، وابن خلدون في المغرب ، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه (الدرر

الكامة في أعيان المائة الثامنة).

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطي في مصر ، وابن الوزير في اليمن ، والدهلوي في الهند ، والشوكاني والصنعاني في اليمن ، وابن عبد الوهاب في نجد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين .

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه ، مستدلاً بالأحاديث الواردة في المهدي ، وأنه يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً^(١).

ج - ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذه الحديث ما ذكره الحافظ في (الفتح) بقوله : (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمة المذكورة أزمة الصحابة ، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك ، فيختص بهم ، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور لكن الصحابي فهم التعميم ، فلذلك أجاب من شكأ إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر ، وهم - أو جلهم - من التابعين^(٢)) اهـ .

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضاً : فهو خاص بأزمة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين ، وقد توفي في زمن عثمان رضى الله عنهما .

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت ، والرضا بالمنكر والفساد ، ويؤيد السلبية في مواجهة الطغاة المتجبرين في الأرض ...

فالرد على ذلك من عدة أوجه :

أولاً : إن القائل (اصبروا) هو أنس رضى الله عنه ، فليس هو من الحديث المرفوع . وإنما استنبطه منه ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم (عليه السلام) .

ثانياً : إن أنسا لم يأمرهم (بالرضا) بالظلم والفساد ، وإنما أمرهم (بالصبر) وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الرضا بالكفر كفر ، وبالمُنكر منكر ، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد ، وقد يصبر المرء على الشيء وهو كاره له ، ساع في تغييره .

(١) فتح الباري ج ١٦ ص ٢٢٨ ط الحلي .

(٢) المرجع السابق .

ثالثاً: إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة، مجتهداً أن يعد العدة، ويتخذ الأسباب، معتضداً بكل من يحمل فكرته، منتهزا الفرصة المواتية، ليوافقه قوة الباطل بقوة الحق، وأنصار الظلم بأنصار العدل، وضد الطاغوت بجند الله.

وقد صبر النبي (ﷺ) ثلاثة عشر عاماً في مكة على الأصنام وعبادها، فيصلي بالمسجد الحرام، ويطوف بالكعبة وفيها وحوها ثلاثمائة وستون صنماً، بل طاف في السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه في عمرة القضاء، وهو يراها ولا يمسه، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها.

ولهذا قرر علماءنا: أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال.

وعلى هذا لا ينبغي أن يفهم من الوصية بالصبر الإستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

رابعاً: إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله، فقد جاء في الحديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، (سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله).

٣ - حديث سحر النبي (ﷺ)

□ س : أنا طالب علم يجب أن يستزيد من المعرفة ، ويعطى العلماء حقهم من التقدير والتوقير ، وخصوصاً الذين كان لهم حظ وافر في تنوير العقول ، وإيقاظ الوعي الإسلامي ، وتحريك الهمم والعزائم ، للنهوض بالأمة الإسلامية ، وإخراجها من حالة الجمود والموات التي ظلت عليها مدة طويلة في الأزمنة الأخيرة .

ومن هؤلاء العلامة السيد رشيد رضا ، وقد كنا نعهده من دعاة السلف ، ومن المدافعين عن السنة ، والمقاومين للبدع والضلالات ، ولكن علمت أخيراً أنه كذب حديثاً من أحاديث صحيح البخاري ، وهو من حديث سحر اليهود للنبي (ﷺ) ، تبعاً لشيخه الشيخ محمد عبده ، الذي وافق المعتزلة في إنكاره لهذا الحديث .

ومن قراءتي لكتبتكم لمست أنكم من المعجبين بالشيخ رشيد رضا رحمه الله فما تفسيركم لهذا الموقف منه؟ وقبل ذلك هل هذا هو موقفه من الحديث فعلاً؟ وكيف يعتبر إماماً في الدين من ينكر أحاديث الصحيحين أو أحدهما؟

أرجو بيان ذلك تفصيلاً ، بارك الله في جهودكم وأيدكم بتوفيقه .

طالب علم

■ ج : شكر الله للأخ السائل حسن تأنيبه وتثبته فيما ينقل إليه ، وحرصه على المعرفة ، ورغبته في الإستزادة من العلم ، فقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿وقل رب زدني علماً﴾^(١) .

وشكر الله له كذلك تقديره وتوقيره للرجال الكبار ، الذين قاموا بدور بارز في إحياء هذه الأمة ، وتجديد دينها ، وإيقاظ وعيها ، فهذه فضيلة طيبة يجب أن يثبت عليها ، ويعض عليها بالنواجذ ، فإني أرى كثيرين - للأسف - لا هم لهم إلا هدم القمم ، وتشويه الأبطال والعظماء ، في تراثنا وفي حاضرتنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وشكر الله له بعد ذلك حسن ظنه بي ، وأرجو أن أكون أهلاً لذلك ، وأن أقول كلمة إنصاف في شأن الشيخ رشيد رحمه الله وجزاه عن دينه وأمته خيراً .

وأنا لا أنكر أنني من أشد المعجبين بالشيخ رشيد ، وأعتبره أحد مجددي الإسلام ،

(١) سورة طه : ١١٤ .

وواحداً من أعلامه الراسخين في العلم، المستقلين في الفكر، المجتهدين في الدين، وقد كان لمجلته «المنار» وتفسيره، وكتبه، وفناويه، أثر لا يححد في تنبيه الأمة الإسلامية من غفلتها، وتحريرها من أغلال التقليد التي وضعتها في أعناقها، والعمل على إعادتها إلى ينباع الصافية من كتاب ربها وسنة نبيها، وهدي سلفها الصالح في خير القرون، وتنقية الدين مما شابته وعلق به على مر العصور، من البدع والزوائد والانحرافات التي كدرت صفاءه، ولو ثبث نقاءه، والدعوة إلى الإسلام، بوصفه عقيدة وشرعة وحضارة.

فهو في طليعة دعاة السلفية، وأنصار السنة المحمدية، الذين أحيوا علوم السلف ونوهمها، وناصروا المدرسة السلفية بالعقل والنقل، وبالبيانات التي تخاطب العقل المعاصر، وبالحجج التي تدحض شبهات الخصوم، وافتراءات الأعداء، وتدعو إلى الإسلام في شمول وتكامل وتوازن، كما أنزله الله في كتابه، وبعث به رسوله (ﷺ).

ولا يعني هذا أن الشيخ رشيداً مبرأ من كل عيب أو معصوم من كل خطأ، فهذا ما لم يقله عن نفسه، وما لا نقوله نحن عنه. وقد عاش عمره يحارب الذين يقدسون شيوخهم إلى حد يكاد يجعلهم معصومين لا يخطئون في قول أو فعل.

وأحب أن أبادر فأقول للأخ السائل الكريم: هب أن الإمام المجدد السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، هفا هذه الهفوة التي تذكرها، وهي إنكاره لحديث من أحاديث الصحيحين أو أحدهما، وانتقاده لسنده أو متنه، فهل يوجب هذا أن نجحد فضله، ونعزله عن منصب الإمامة في الدين، والاجتهاد فيه لزلة يزها فكره وقلمه، أو لعثرة تنزلق فيها قدمه؟! وأي أمرىء يسلم من العثرات؟ وأي عالم تخلو صفحته من زلات؟

وقديماً قيل: لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة.

وقالوا: الكامل من عدت سقطاته، وأحصيت زلاته.

وقال الشاعر العربي:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه

الأمر المهم في ذلك ألا يكون ردّه للحديث المروي في الصحيح لهوى متبع، سواء كان هوى النفس أم هوى الغير، ممن حذر الله منهم في مثل قوله ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾^(١).

(١) سورة الجاثية: ١٨.

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغِيرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (١).

وكم رأينا من الأئمة المتبوعين والمقبولين في الأمة من رد حديثاً ثابتاً عند غيره ولم يثبت عنده؛ لعله رآها. وربما روى هذا الحديث بعد في أحد الصحيحين أو في كليهما. ولم ينقص هذا من قدر هؤلاء ، ولم يחדش من إمامتهم شيئاً.

وقد رأينا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ترد بعض الأحاديث التي تسمعها من بعض الصحابة، حين رأتها تخالف القرآن في رأيها، أو تخالف ما سمعته هي من النبي (ﷺ) ، ولم يزدها هذا إلا فضلاً ورفعاً عند الأمة.

ثم إنه لا يجوز أن يقال فيمن رد حديثاً أو حديثين من البخاري أو مسلم أو كليهما: إنه رد أحاديث الصحيحين أو كذبهما، فهذا تصوير غير صحيح للقضية، واتهام في غير موضعه.

هذا كله من ناحية المبدأ أو الشكل ، أما من ناحية الموضوع ، فإن الشيخ رشيداً لم يكذب الحديث المروي في السحر ولم ينكره ، تبعاً لشيخه الإمام محمد عبده ، فقد كان السيد رشيد - رغم إعجابه بعبقريه شيخه وإيمانه بقوة دينه وحبه لله ولرسوله - مستقلاً في تفكيره واجتهاداته ، وقد استفاد من عقلانية شيخه ، وثورة فكره ، ولكنه ضبطها بتبحره في السنة وتراث السلف .

والناظر في شخصيات المدرسة التجديدية الإحيائية الإسلامية التي بدأت بجمال الدين الأفغاني ، يجد أن أولها - وهو السيد جمال الدين - كان أكثرها انطلاقاً ، وأقلها انضباطاً بقيود الشرع وضوابط الكتاب والسنة ، فقد كان أقلهم حظاً من التبحر في علوم الشريعة ومصادرها ، ونجد تلميذه وصديقه الأستاذ الإمام محمد عبده أقرب إلى الالتزام والانضباط منه ؛ لأنه أكثر علماً بالشرع ، وأكثر تبحراً في معارفه بحكم تكوينه الأزهرى الأصيل ، ونجد تلميذ الأستاذ الإمام رشيد رضا أكثر التزاماً ، وانضباطاً من شيخه ، وشيخ شيخه من باب أولى .

فقد أتيح له أن يطلع على آثار المدرسة السلفية التجديدية الكبرى المتمثلة في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، ومن خلالها اطلع على التراث السلفي الضخم ، واستطاع أن

(١) سورة القصص : ٥٠ .

ينهل منه ، ويتنفع به في دعوته للإصلاح والتجديد . فالسيد جمال الدين أقرب إلى عقلية «الفلاسفة» ، أعنى فلاسفة المدرسة المشائية الإسلامية من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم .

والإمام محمد عبده أقرب إلى عقلية المتكلمين من أمثال الباقلاني وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم .

والسيد رشيد أقرب إلى عقلية «فقهاء المحدثين» الجامعين بين المعقول والمنقول ، أمثال الإمام محمد بن إدريس الشافعي وابن دقيق العيد ، وابن تيمية وابن القيم وابن الوزير وأمثالهم .

وقول السائل : إن الشيخ محمد عبده أنكر حديث السحر ، تبعاً للمعتزلة في ذلك ، غير مسلم على إطلاقه .

فليس المعتزلة وحدهم هم الذين أنكروا حديث السحر ، فقد أنكره بعض أهل السنة أيضاً ، مثل الإمام أبي بكر الرازي الحنفي المعروف بالخصاص ، صاحب كتاب : «أحكام القرآن» وبعض المتكلمين .

ولكن جمهور علماء أهل السنة أثبتوا الحديث ، لروايته من طرق صحيحة ، وكان لهم في توجيهه تأويلات شتى ، كلها تؤكد عصمة النبي (ﷺ) ، وتنفي عنه مالا يليق به ، كما حفلت بذلك كتب الشروح .

ولم يخرج صاحب المنار السيد رشيد عن خطهم في الجملة ، بل أثبت الحديث ، وأوله التأويل اللائق بمنصب النبوة ، ومقتضى العصمة .

* نص الحديث وكلام الشراح عليه:

ويحسن بنا أن نسوق نص الحديث كما رواه البخاري ، ونسوق رأي بعض الشراح فيه ، ثم نختم برأي الشيخ رشيد الذي خطه بقلمه في تفسير سورة «الفلق» وردده فيه على من اتهمه بتكذيب البخاري .

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله (ﷺ) رجل من بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله (ﷺ) يخجل إليه أنه كان يفعل

الشيء وما فعله^(١). حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال : «يا عائشة، أشعرت أن الله أفثاني فيما استفتيته فيه^(٢) ؟ أتاني رجلان^(٣)، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل؟ فقال : مطبوب^(٤). قال : من طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم، قال : في أي شيء؟ قال : في مُشط^(٥) ومُشاطة^(٦) وجف طلع نخلة ذكر^(٧). قال : وأين هو؟ قال : في بئر ذروان». فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال : «يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء^(٨)، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين^(٩)». قلت : يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال : «قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًا». فأمر بها فدفنت^(١٠).

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في «الفتح» :

قوله «باب السحر» قال الراغب وغيره : السحر يطلق على معان :

أحدها : ما لطف ودق، ومنه سحرت الصبي خادعته واستملته، وكل من استمال شيئاً فقد سحر، ومنه قول الأطباء : الطبيعة ساحرة، ومنه قوله تعالى : ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾^(١١) أي مصروفون عن المعرفة، ومنه حديث «إن من البيان سحراً»، وسيأتي قريباً في باب مفرد.

الثاني : ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿يُحْيِلْ إِلَيْهِ مَنْ سَخَّرَ مِنْهُ أُنْهَاسَ﴾^(١٢) وقوله تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾^(١٣) ومن هنا سموا موسى ساحراً، وقد يستعين في ذلك بما يكون فيه خاصية بالحجر الذي يجذب الحديد المسمى المغناطيس.

(١) في رواية البخاري من حديث في باب هل يستخرج السحر حديث (٥٧٦٥) من طريق ابن عينة أن عائشة قالت : «حتى كان يرى أنه يأتي نساء ولا يأتين»، وهو تفسير وبيان لما أجمل وعمم في هذه الرواية.

(٢) أي أجبني فيما دعوته فيه. (٣) في رواية عند أحمد والطبراني : أتاني ملكان.

(٤) مطبوب : أي مسحور، يقال : طب بضم الطاء إذا سحر كنوا عن الطب تفاؤلاً.

(٥) المشط : معروف وهو ما يمسح به شعر الرأس واللحية.

(٦) المشاطة : ما يخرج من الشعر الذي يسقط من الرأس إذا سرح بالمشط، وكذا من اللحية. كما قال ابن قتيبة.

(٧) وهو الغشاء الذي يكون على الطلع.

(٨) أي أن لون مائها أحمر كالماء الذي يقع فيه الحناء.

(٩) تشبيه يراد منه التقييح ؛ لأن كل ما ينسب إلى الشيطان مستقيح شرعاً وعرفاً.

(١٠) أخرجه البخاري في : كتاب الطب. باب السحر. حديث (٥٧٦٣). البخاري المطبوع مع الفتح. ط. دار الفكر بيروت، المصورة عن

السلفية بالقاهرة.

(١١) سورة الحجر : ١٥ (١٢) سورة طه : ١٥ (١٣) سورة الأعراف : ١١٦.

الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم ، وإلى ذلك الإشارة قوله تعالى : ﴿ولكن الشياطين كفروا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ﴾^(١).

الرابع : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم .

قال ابن حزم : ومنه ما يوجد من الطلسمات كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب ، فينفع إمساكه من لدغة العقرب ، وكالمشاهد ببعض بلاد الغرب - وهي سرقسطة - فإنها لا يدخلها ثعبان قط إلا إن كان بغير إرادته ، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين الأخيرين ، كالإستعانة بالشياطين ، ومخاطبة الكواكب فيكون ذلك أقوى بزعمهم .

قال أبو بكر الرازي في «الأحكام» له : كان أهل بابل قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة ، ويعتقدون أنها الفعالة لكل مافي العالم ، وعملوا أوثاناً على أسمائها ، ولكل واحد هيكلكل فيه صنمه يتقرب إليه بما يوافقهم بزعمهم من أدعية وبخور ، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام وكانت علومهم أحكام النجوم ، ومع ذلك فكان السحرة منهم يستعملون سائر وجوه السحر وينسبونها إلى فعل الكواكب ، لئلا يبحث عنها وينكشف قوميهم .

ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحر بها ، ويطلق ويراد به فعل الساحر ، والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط كالرقى والنفت في العقد ، وتارة تكون بالمحسوسات كتصوير الصور على صورة المسحور ، وتارة بجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ . واختلف في السحر فقليل : هو تخيل فقط ولا حقيقة له ، وهذا اختيار أبي جعفر الاستربادي من الشافعية ، وأبي بكر الرازي من الحنفية ، وابن حزم الظاهري وطائفة .

قال النووي : والصحيح أن له حقيقة ، وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة . لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عليه أو لا ؟ فمن قال : إنه تخيل فقط منع ذلك ، ومن قال : إنه له حقيقة اختلفوا : هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض ، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجهاد حيواناً مثلاً وعكسه ؟

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

فالذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني، فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل خلاف، فإن كثيراً ممن يدعى ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه.

وقال الخطابي: إن قوماً أنكروا السحر مطلقاً، وكأنه عنى القائلين بأنه تخيل فقط وإلا فهي مكابرة.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، وأن له حقيقة، ونفي بعضهم حقيقته، وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة وهو مورود، لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك مايقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً.

وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(١) لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره.

وقال المازري: والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصاً في منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك، ثم قال: والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم الساحر بما يريد والكرامة لا تحتاج إلى ذلك بل إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي.

ونقل النووي في زيادات الروضة عن المتولى نحو ذلك، وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسكاً بالشرعية، متجنباً للموبقات، فالذي يظهر على يده من الخوارق كرامة، وإلا فهو سحر؛ لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين.

وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالإكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخيلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ١٠٢

(٢) سورة الأعراف: ١١٦.

مع أن حباهم وعصيتهم لم تخرج عن كونها حباً وعصياً. ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيواناً أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك.

قوله: «سحر النبي (ﷺ) رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم» ووقع في رواية عبدالله بن نمير عن هشام بن عروة عند مسلم «سحر النبي (ﷺ) من يهود بني زريق حليف اليهود وكان منافقاً»، ويجمع بينهما بأن من أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره.

وقال ابن الجوزي: هذا يدل على أنه كان أسلم نفاقاً وهو واضح، وقد حكى عياض في «الشفاء» أنه كان أسلم.

ويحتمل أن يكون قيل له يهودي؛ لكونه كان من حلفائهم، لا أنه كان على دينهم. وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج، وكان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهود قبل الإسلام حلف وإخاء وود، فلما جاء الإسلام ودخل الأنصار فيه تبرءوا منهم.

قوله: «حتى كان رسول الله (ﷺ) يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله» قال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحطّ منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، وقال المازري: وهذا كله مردود؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبي (ﷺ) فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شهادات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل. وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يتعرض البشر كالأفراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لاحقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان (ﷺ) يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطئهن، وهذا كثير ما يقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة.

قلت - القائل ابن حجر - : وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عيينة في الباب الذي يلي هذا، ولفظه : «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن» وفي رواية الحميدي «أنه يأتي أهله ولا يأتيهم، قال الداودي : «يرى» بضم أوله أي يظن، وقال ابن التين : ضبطت «يرى» بفتح أوله، قلت : وهو من رأى لا من الرؤية، فيرجع إلى معنى الظن . وفي مرسل يحيى بن يعمر عند عبدالرزاق «سحر النبي (ﷺ) عن عائشة حتى أنكر بصره» وعنده في مرسل سعيد بن المسيب «حتى كاد ينكر بصره» .

قال عياض : فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده .

قلت : ووقع في مرسل عبدالرحمن بن كعب عند ابن سعد «فقالت أخت لبيد بن الأعصم : إن يكن نبياً فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله» . قلت : «فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحيح» .

وقد قال بعض العلماء : لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك . وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة .

وقال عياض : يحتمل أن يكون المراد بالتخييل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سباق عاداته من الإقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن «المعقود»^(١)، ويكون قوله في الرواية الأخرى «حتى كاد ينكر بصره» أي صار كالذي أنكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل أنه على غير صفته، فإذا تأمله عرف حقيقته . ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار : أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به .

وقال المهلب : صون النبي (ﷺ) من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، فقد مضى في الصحيح أن شيطانا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه، فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفعل، أو حدوث تخيل لا يستمر، بل يزول ويبطل الله كيد الشياطين .

(١) المعقود : ويسمى عرفاً المربوط، وهو من حبسه السحر عن القدرة على الاتصال بزوجه .

واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث : «أما أنا فقد شفاني الله» ، وفي الإستدلال بذلك نظر ، لكن يؤيد المدعى أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل : «فكان يدور ولا يدري ما وجعه» ، وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد : «مرض النبي (ﷺ) وأُخذ عن النساء والطعام والشراب ، فهبط عليه ملكان» الحديث .

قوله : «وهو عندي لكنه دعا ودعا» كذا وقع ، وفي الرواية الماضية في بدء الخلق «حتى كان ذات يوم دعا ودعا» ، وكذا علقه المصنف لعيسى بن يونس في الدعوات ، ومثله في رواية الليث . قال الكرمانى : يحتمل أن يكون هذا الاستدراك من قولها «عندي» أي لم يكن مشغلا بي بل اشتغل بالدعاء ، ويحتمل أن يكون من التخيل ، أي كان السحر أضره في بدنه لا في عقله وفهمه بحيث إنه توجه إلى الله ودعا على الوضع الصحيح والقانون المستقيم . ووقع في رواية ابن نمير عند مسلم : «فدعا ، ثم دعا ، ثم دعا» وهذا هو المعهود منه أنه كان يكرر الدعاء ثلاثاً . وفي رواية وهيب عند أحمد وابن سعد : فرأيتُه يدعو .

قال النووي : فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره والالتجاء إلى الله تعالى في دفع ذلك .

قلت - القائل ابن حجر - : سلك النبي (ﷺ) في هذه القصة مسلكى التفويض وتعاطي الأسباب ، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه ، فاحتسب الأجر في صبره على بلائه ، ثم لما تمادى ذلك وخشى من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته ، جنح إلى التداوى ، ثم إلى الدعاء ، وكل من المقامين غاية في الكمال .

قوله : «قلت : يارسول الله أفلا استخرجته» في رواية أبي أسامة ، «فقال : لا» ووقع في رواية ابن عيينة أنه استخرجه ، وأن سؤال عائشة إنما وقع عن النشرة فأجابها بلا ، وسيأتي بسط القول فيه بعد باب .

قوله : «فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً» في رواية الكشميهني : «سوءاً» ورفع في رواية أبي أسامة «أن أُثَوِّرَ» بفتح المثلثة وتشديد الواو وهما بمعنى ، والمراد بالناس التعميم في الموجودين .

قال النووي : خشى من إخراجه وإشاعته ضرراً على المسلمين من تذكر السحر وتعلمه ونحو ذلك ، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة .

ووقع في رواية ابن نمير «على أمتي» وهو قابل أيضاً للتعميم؛ لأنه الأمة تطلق على أمة الإجابة وأمة الدعوة وعلى ما هو أعم، وهو يرد على من زعم أن المراد بالناس هنا لبيد ابن الأعصم؛ لأنه كان منافقاً فأراد (ﷺ) ألا يثير عليه شراً؛ لأنه كان يؤثر الإغضاء عمن يظهر الإسلام، ولو صدر منه ماصدر، وقد وقع أيضاً في رواية ابن عيينة، وكرهت أن أثير على أحد من الناس شراً.

نعم، وقع في حديث عمرة عن عائشة، فقيل: يارسول الله لو قتلتك، قال «ما وراءه من عذاب الله أشد»، وفي رواية عمرة: «فأخذني النبي (ﷺ) فاعترف فعفا عنه»، وفي حديث زيد بن أرقم: «فما ذكر رسول الله (ﷺ) لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به ولا رآه في وجهه».

وفي مرسل عمر بن الحكم: «فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: حب الدنانير».

وقد تقدم في كتاب الجزية قول ابن شهاب أن النبي (ﷺ) لم يقتله.

وأخرج ابن سعد من مرسل عكرمة أيضاً أنه لم يقتله، ونقل عن الواقدي أن ذلك أصح من رواية من قال إنه قتله، ومن ثم حكى عياض في «الشفاء» قولين: هل قتل، أم لم يقتل؟

وقال القرطبي: لا حجة على مالك^(١) من هذه القصة؛ لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس من الدخول في الإسلام، وهو من جنس مارعاه النبي (ﷺ) من منع قتل المنافقين حيث قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٢) أهـ.^(٣)

هذا بعض ما ذكره الشراح حول حديث سحر اليهود للنبي (ﷺ)، وهو يبين مدى ما أثاره الحديث من استشكالات، ومدى اهتمام العلماء بمواجهتها ببيانات النقل والعقل. فلا عجب أن يكون هذا الحديث مثار اهتمام لدى العقل الحديث، وخصوصاً بعد نقائه بعقول الآخرين، وتعرفه على أفكارهم.

ومن هنا تكلم فيه العلامة رشيد رضا، لا كلام النافي له أو المكذب، بل كلام من يصدق به ويؤوله أحسن تأويل، يقنع أهل العقل والنظر ولا يرده أهل النقل والأثر.

(٢) الحديث (٥٧٦٣).

(١) أي في قوله بقتل الساحر.
(٣) فتح الباري ١٠ / ٢٢١ - ٢٣٢.

وإليك مذكره في نهاية تفسير سورة الفلق، من قصار السور تحت عنوان: علاوة لتفسير السورة في حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبي (ﷺ).

وبعد أن ذكر رواية الشيخين للحديث من طريق عائشة رضى الله عنها وهي التي أوردناها من قبل أشار إلى الرواية الأخرى، حيث قال: وفي رواية الشيخين: كان (ﷺ) سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن بنحوه، وفيه: سحره رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقاً^(١)، وعن زيد بن أرقم سحر النبي (ﷺ) رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً فاتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا فأرسل (ﷺ) فاستخرجها فحلها فقام كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط. رواه النسائي. والأيام جمع قلة، ولكن بالغ بعض الرواة في غير الصحيحين فجعلوها أشهراً.

قال السيد رشيد: فهذا الحديث صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء، ولكن فهم أكثر العلماء أنه (ﷺ) سحر سحراً أثار في عقله، كما أثار في جسده، فأنكره بعضهم، وبالغوا في إنكاره، وعدوه مطعناً في النبوة، ومنافياً للعصمة؛ لقول عائشة: حتى إنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء، ولم يكن فعله. فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول، وعدوها مخالفة للقطعي في النقل، وهو ما حكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وتفنيده تعالى لهم بقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾^(٢). ومخالفة للقطعي في العقل من عصمة النبي (ﷺ) من كل ما ينافي النبوة والثقة بها؛ إذ يدخل في ذلك التخييل ما هو من التشريع، ومخالفة لعلم النفس الذي يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة، فأنكر صحة الرواية بعض العلماء، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء: أبو بكر الجصاص في كتابه «أحكام القرآن» وآخرهم: شيخنا الإمام في تفسيره «جزء عم».

وقد أطل شيخنا في هذا وبالع في. وبنى إنكاره له على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظنى للقطعي، إذ الحديث آحادى، وهو يفيد الظن، فيرد بالقطعي عقلاً ونقلاً، وهو مذكرناه آنفاً، وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يحتج

(١) بنو زريق بطن من الخزرج فهو على هذه الرواية يهودي بالحلف لا بالنسب.

(٢) سورة الفرقان: ٨، ٩.

بها في أصول العقائد . وقال : إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده ، وإن له أن يتأوله أو يفوض الأمر فيه ، على قاعدتهم الأخرى في النصوص المعارضة للعقل . ولعمري إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده قدس الله روحه من إجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين في نفسه الزكية ، وروحه القدسية ، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقلين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم ، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية ، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته (ﷺ) وحسبك منها تلك الآثار البليغة في رسالة التوحيد ، بل كان يقول : إن روحه (ﷺ) كانت منظوية على جملة هداية الدين ومدارك التشريع التي فصلت في كتاب الله تعالى وستته تفصيلاً تاماً ، كما نقلناه عنه في تاريخه .

وأجاب عن الرواية المحدثون المصححون لها علماً والمقلدون لهم بأن غاية ماتدل عليه : أن ذلك السحر إنما أثر في بدنه دون روحه وعقله ، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية ، كالأمرض التي لم يعصم الأنبياء عليهم السلام منها .

وقد محصت هذه المسألة مراراً آخرها في الرد على مجلة الأزهر «نور الإسلام» في زعمها المفتري أنني كذبتُ حديث البخاري في سحر النبي (ﷺ) فبينت : أن الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة رضی الله عنها توهم عبارة بعض رواياته ماهو أعم من المعنى الخاص الذي أرادته منه ، وهو مباشرة الزوجية بينه (ﷺ) وبينها ، فقولها : كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لم يفعله كناية عن هذا الشيء الخاص ، لا عام في كل شيء ، فلا يدخل فيه شيء من أمور التشريع ، ولا غير غشيان الزوجية من الأمور العقلية ، أو الأمراض البدنية ، فضلاً عما كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون ؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين ، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتى الآن «الربط» أو «العقد» أي عقد الرجل المانع من مباشرة زوجته فقط .

وبينت أيضاً : أن الرواية في أصح أسانيدها عند الشيخين عن هشام عن أبيه عن عائشة فيها علة من علل الحديث الخفية التي يشترط في صحة الحديث السلامة منها ، وهي أن بعض منكري الحديث أعلوه بهشام هذا ، وألف بعضهم كتاباً خاصاً فيه ، محتجاً بقول بعض علماء الجرح والتعديل : إنه كان في العراق يرسل عن أبيه عروة بن الزبير ماسمعه من غيره ، وعروة هو راوية عائشة الثقة ، وهي خالته ، وقال ابن خراش : كان مالك

لا يرضاه، يعنى هشاماً، وقد نقم منه حديثه لأهل العراق، وقال ابن القطان : تغير قبل موته . ولا شك أن تعديل الجماعة له - ومنهم الشيخان - خاص بما رواه قبل غيره، فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الذي أنكروا متنه بما علمت، والأمر فيه أهون مما قالوا^(١) فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجية، كما جاء التصريح به في الرواية الثانية كما تقدم، ولا يعتد بغير هذا.

أما ما رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس في مرضه (ﷺ) وأنه كان شديداً، وأنه كان سحرأ في بئر تحت صخرة في كربة، وأنهم أخرجوها فأحرقوها فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت عليه هاتان السورتان - يعنى المعوذتين - فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة. اهد ملخصاً فهذا حديث باطل يخالف لحديث الصحيحين في المسألة، ولروايات نزول السورتين بمكة، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي هذا متهم بالكذب، وطريقه أوهى الطرق عن ابن عباس، وإسمه محمد بن السائب.

وأما ما رواه أبو نعيم في الدلائل عن أنس قال : صنعت اليهود للنبي (ﷺ) شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد، فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألم به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما، فخرج إلى أصحابه صحيحاً، فهو من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، وهما ضعيفان . وليس في متنه ذكر السحر ولا أن المعوذتين نزلتا في ذلك الوقت، ولا في أي شيء من روايات الصحيحين . فالإستدلال به على أنها مدنيان ضعيف، فالحق أنها مكيتان كما تقدم . أهـ.

هذا هو كلام العلامة السيد رشيد رحمه الله تعالى في الحديث وتأويله، وهو كلام عالم فقيه جازٍ على نهج المحدثين الأصلاء، في الجرح والتعديل، والشرح والتعليل، وهو كلام إمام مصلح، حريص على البناء لا الهدم، وعلى التجديد لا التبديد، يعرف قدر السلف، ولا ينكر حق الخلف . يخالف شيخه، ولكنه يدافع عنه ويؤكد مقدار حبه وتوقيره لرسول الله (ﷺ) وهذا هو العدل والإنصاف . فرضى الله عن الشيخ رشيد وجزاه عن الإسلام وأمته خيراً وأثابه على كل ما اجتهد فيه، أخطأ أو أصاب : أجرأ أو أجربن . آمين .

(١) راجع تفصيل المسألة في : كتاب المنار والأزهر ص ٩٥ - ١٠٥ .